الباب الأول
حول العلمانية

obeikandl.com

obeikandl.com

تعريف العَلْمانِيّة وماهيتها

بفتح العين مشتقة من الكلمة عَلْم، وهي مرادفة لكلمة عالَم قارن الإنكليزية Laicism والفرنسية Laïcisme وهما مشتقتان من الكلمة اليونانية: Λαος/لاوُس/ شعب، رعاع أي عكس الكهنة ثم صارت الكلمة تدل على القضايا الشعبية الدنيوية، بعكس الكهنوتية الدينية وكلمتنا العربية ترجمة مستعارة من السريانية لأن السريان اشتقوها أولا في لغتهم ترجمة مستعارة عن اليونانية أيضاً، فالعلماني في السريانية هو الدنيوي، الدهري، ولا علاقة لهذا المعنى بالعِلم بكسر العين ومن الجدير بالذكر أن الجذر السامي /ع ل م/ يفيد في جميع اللغات السامية معاني الدهر، الدنيا، العالم، الزمن اللا متناهي، إذ يجانس كلمة العالم عندنا كل من الكلمات السريانية: /ܥܠܡܐ: عَلْما/، والعبرية: עולם: عُولَم، وكذلك البابلية: عَلونو، والحبشية: عالَم فالكلمة السريانية أعلاه ترجمة مستعارة عن اليونانية كما نرى لأن الدنيا من معاني الكلمة السريانية ܥܠܡܐ: عَلْما أيضاً.

والعَلْمَانِيّة ترجمة غير دقيقة، بل غير صحيحة لكلمة Secularism في الإنجليزية، أو Sécularité أو laïque بالفرنسية، وهي كلمة لا علاقة لها بلفظ العِلْم ومشتقاته، على الإطلاق فالعِلْم في الإنجليزية والفرنسية

يعبر عنه بكلمة cience، والمذهب العِلْمِي، نُطلق عليه كلمة Scientism، والنسبة إلى العِلْم هي Scientific أو Scientifique في الفرنسية، والترجمة الصحيحة للكلمة هي الدنيوية، لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب، بل بمعنى أخص، وهو ما لا صلة له بالدِّين أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد وتتضح الترجمة الصحيحة من التعريف، الذي تورده المعاجم، ودوائر المعارف الأجنبية للكلمة حيث تقول دائرة المعارف البريطانية مادة ecularismهي حركة اجتماعية، تهدف إلى صرف الناس، وتوجيههم إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها، وذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا، والتأمل في الله واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت ال Secularism تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية، وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة.

ويقول قاموس العالم الجديد لوبستر، شارحاً المادة نفسها: الروح الدنيوية، أو الاتجاهات الدنيوية، ونحو ذلك على الخصوص: نظام من المبادئ والتطبيقات Practices يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة والاعتقاد بأن الدين والشئون الكنسية لا دخل لها بشئون الدولة، خاصة التربية العامة ويقول معجم أكسفورد شارحاً كلمة Secular

دنيوي، أو مادي، ليس دينياً ولا روحياً، مثل التربية اللادينية، الفن أو الموسيقى اللادينية، السلطة اللادينية، الحكومة المناقضة للكنيسة.

ويقول المعجم الدولي الثالث الجديد مادة Secularism: هى اتجاه في الحياة أو في أي شأن خاص، يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية، يجب ألا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات، استبعاداً مقصوداً، فهي تعني مثلاً السياسة اللادينية البحتة في الحكومة وهي نظام اجتماعي في الأخلاق، مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي، دون النظر إلى الدين وعلى المستوي السياسي تطالب العلمانية بحرية الاعتقاد وتحرير المعتقدات الدينية من تدخل الحكومات والأنظمة، بفصل الدولة عن أية معتقدات دينية أو غيبية، وحصر دور الدولة في الأمور المادية فقط ولقد استخدم مصطلح Secular لأول مرة مع توقيع صلح وستفاليا - الذي أنهى أتون الحروب الدينية المندلعة في أوروبا - عام ١٦٤٨م، وبداية ظهور الدولة القومية الحديثة (أي الدولة العلمانية) مشيرًا إلى علمنة ممتلكات الكنيسة بمعنى نقلها إلى سلطات غير دينية أي لسلطة الدولة المدنية والعلمانية هي أيديولوجيا تشجع المدنية والمواطنة وترفض الدين كمرجع للحياة السياسية، ويمكن أيضاً اعتبارها مذهب يتجه إلى أنّ أمور الحياة للبشر، خصوصاً السياسية منها، يجب أن تكون مرتكزة على ما هو مادي ملموس وليس على ما هو

غيبي، وترى أنّ أمور الحياة يجب أن تتحرر من النفوذ الديني، ولا تعطي ميزات لدين معين على غيره، على عكس الأصول الدينية فهى تعتمد على ما تعتقده حقائق مطلقة أو قوانين إلهية لا يجوز التشكيك في صحتها أو مخالفتها مهما كان الأمر، وتُفسّر العلمانية من الناحية الفلسفية أن الحياة تستمر بشكل أفضل ومن الممكن الاستمتاع بها بإيجابية عندما نستثني الدين وفي تعريف آخر للعلمانية: هي رفض أية سلطات تشريعية أو تنفيذية دينية تتدخل فى حياة الفرد فالدين في العلمانية ينتهي عندما يخرج الفرد من مكان عبادته سواء المسجد أو الكنيسة فمثلاً لو حكم على شخص بالإعدام على أساس ديني فهذا الحكم مرفوض في النظرة العلمانية فيجب أن يكون الحكم مبني على قانون قضائي وطني تضعه حكومة الدولة ولا يتدخل رئيس الدولة فيه لأن القضاء يجب أن يكون مفصولاً عن الحكم.

وفى تعريف مختلف للعلمانية :هى استخدام أساليب المنهج العلمى البحثى التجريبى القائم على العقل العلمي في إدارة جميع شئون الحياة بعيداً عن أى معتقدات دينية لاهوتيه بأى شكل من الأشكال حيث أن المعتقدات الدينية بطبيعتها تقسم البشر لأصناف بين أتباع مؤمنين ومخالفين غير مؤمنين فالعلمانية لا تنهى عن اتباع دين معين أو ملة معينة، بل تنادى فقط بأن يتم فصل الدين عن السياسة والدولة، وأن تكون الأديان هي معتنق شخصي بين الإنسان وربه وهناك من يقول أن

أبو العلمانية هو ابن رشد في الوقت ذاته يدافع آخرون عن ابن رشد ويتهمون الغرب بفهمهم الخاطئ له، فقد كان فقيهاً وقاضياً يحكم بالشريعة الإسلامية.

صور العلمانية وللعلمانية صورتان، كل صورة منهما أقبح من الأخرى :

الصورة الأولى: العلمانية الملحدة: وهي التي تنكر الدين كلية: وتنكر وجود الله، وتحارب وتعادي من يدعو إلى مجرد الإيمان بوجود الله، وهذه العلمانية على فجورها ووقاحتها في التبجح بكفرها، إلا أن الحكم بكفرها أمر ظاهر ميسور لكافة المسلمين، فلا ينطلي أمرها على المسلمين، ولا يُقبل عليها من المسلمين إلا رجل يريد أن يفارق دينه، (وخطر هذه الصورة من العلمانية من حيث التلبيس على عوام المسلمين خطر ضعيف) وإن كان لها خطر عظيم من حيث محاربة الدين، ومعاداة المؤمنين وحربهم وإيذائهم بالتعذيب، أو السجن أو القتل.

الصورة الثانية: العلمانية غير الملحدة وهي علمانية لا تنكر وجود الله، وتؤمن به إيماناً نظرياً: لكنها تنكر تدخل الدين في شؤون الدنيا، وتنادي بعزل الدين عن الدنيا،(وهذه الصورة أشد خطرًا من الصورة السابقة)من حيث الإضلال والتلبيس على عوام المسلمين، فعدم إنكارها لوجود الله، وعدم ظهور محاربتها للتدين يغطي على أكثر عوام المسلمين حقيقة هذه الدعوة الكفرية، فلا يتبينون ما فيها من الكفر لقلة علمهم ومعرفتهم

الصحيحة بالدين، لذلك نجد أكثر الأنظمة الحاكمة اليوم في بلاد المسلمين أنظمة علمانية، والكثرة والجمهور الأعظم من المسلمين لا يعرفون حقيقة ذلك ومثل هذه الأنظمة العلمانية اليوم، تحارب الدين حقيقة، وتحارب الدعاة إلى الله، وهي آمنة مطمئنة أن يصفها أحد بالكفر والمروق من الدين ؛ لأنها لم تظهر بالصورة الأولى، لجهل كثير من المسلمين، لهذا فليس من المستبعد أو الغريب عند المسلم الفاهم لدينه أن يجد في كلمات أو كتابات كثير من العلمانيين المعروفين بعلمانيتهم ذكر الله سبحانه وتعالى، أو رسوله ﷺ أو الإسلام، وإنما تظهر الغرابة وتبدو الدهشة عند أولئك الذين لا يفهمون حقائق الأمور.

كيف ظهرت العلمانية: كان الغرب النصراني في ظروفه الدينية المتردية هو البيئة الصالحة، والتربة الخصبة، التي نبتت فيها شجرة العلمانية وترعرعت، وكانت فرنسا بعد ثورتها المشهورة هي أول دولة تُقيم نظامها على أسس الفكر العلماني، لأن الدين عندهم حينئذ لم يكن يمثل وحي الله الخالص الذي أوحاه إلى عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وإنما تدخلت فيه أيدي التحريف والتزييف، فبدلت وغيرت وأضافت وحذفت، فكان نتيجة ذلك أن تعارض الدين المُبدَّل مع مصالح الناس في دنياهم ومعاملاتهم، في الوقت الذي تعارض مع حقائق العلم الثابتة، ولم تكتفِ الكنيسة بما عملته أيدي قسيسيها ورهبانها من تحريف وتبديل، حتى جعلت ذلك دينًا يجب الالتزام والتقيد به، وحاكمت

إليه العلماء المكتشفين، والمخترعين، وعاقبتهم على اكتشافاتهم العلمية المناقضة للدين المبدل، فاتهمت بالزندقة والإلحاد، فقتلت وحرَّقت وسجنت كل من حاول أن ينتقص من منافعها الدنيوية ومن جانب آخر فإن الكنيسة أقامت تحالفاً غير شريف مع الحكام الظالمين، وأسبغت عليهم هالاتٍ من التقديس، والعصمة، وسوَّغت لهم كل ما يأتون به من جرائم وفظائع في حق شعوبهم، زاعمة أن هذا هو الدين الذي ينبغي على الجميع الرضوخ له والرضا به وإذا ما حدث في بلاد الغرب النصراني ليس بغريب، فإنه غير ممكن في الإسلام، بل ولا متصور الوقوع، فوحي الله في الإسلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا هو قابل للتحريف والتبديل، ولا هو ممكن أن يُزاد فيه أو يُنقص منه، وهو في الوقت نفسه لا يحابي أحدًا، سواء كان حاكماً أو محكوماً، فالكل أمام شريعته سواء، وهو يحرص على العلم ويحض عليه، وليس فيه نص شرعي صحيح يُعارض حقيقة علمية، ومن هنا فإن كل الأفكار والمناهج التي ظهرت في الغرب بعد التنكر للدين والنفور منه، ما كان لها أن تظهر، بل ما كان لها أن تجد آذانًا تسمع في بلاد المسلمين، لولا عمليات الغزو الفكري المنظمة، التي صادفت في الوقت نفسه قلوباً من الإيمان خاوية، وعقولاً عن التفكير الصحيح عاطلة، ودنيا في مجال التمدن ضائعة متخلفة.

أسباب نشأة العلمانية

السبب الأول: الطغيان الكنسي

١- يحل ويحرم رجل الكنيسة، ينسخ ويضيف، وليس لأحد حق الاعتراض، أو على الأقل حق إبداء الرأي، كائناً من كان وإلا فالحرمان مصيره واللعنة عقوبته لأنه كافر مهرطق.

٢- حق الغفران (صكوك الغفران) وهي صكوك توزعها اللجنة بالمزاد العلني وكتابة وثائق للمشترين تتعهد الكنيسة فيها بأن تضمن للمشتري غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكل محظور يصبح حلالاً.

٣- وحق الحرمان عقوبة معنوية بالغة يعاقب بها من خالف الكنيسة من ملوك وعلماء وأفراد.

٤- وحق التّحلة فهو حق خاص يبيح للكنيسة أن تخرج عن تعاليم الدين وتتخلى عن الالتزام بها متى اقتضت المصلحة.

ومحاكم التفتيش عبارة عن سجون مظلمة تحت الأرض بها غرف خاصة للتعذيب وآلات لتكسير العظام وسحق الجسم البشري وكان الزبانية يبدأون بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجياً حتى يهشم الجسم كله ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم وذلك لمن خرج عن تعاليم الكنيسة ومن هؤلاء بل على رأسهم العلماء أصحاب الاختراعات.

السبب الثاني الصراع بين الكنيسة والعلم: وهذا يتمثل في أن ما من عالم يخترع شيء إلا ويكفر ويخرج من ملتهم وتطارده محاكم التفتيش

للقضاء عليه فقد كفرت رئيس بلدية في ألمانيا لأنه اخترع غاز الاستصباح بحجة أن الله خلق الليل ليلاً والنهار نهاراً وهو يريد تغيير مشيئة الخالق فيجعل الليل نهاراً.

السبب الثالث الثورة الفرنسية: وبسبب الظلم من الكنيسة المتمثلة في رجال الدين دعت العلمانية للثورة على رجال الدين هناك والظلم الكنسي فما كان من الشعب إلا أن خرج ينادي (أشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس) وهكذا نجحوا في تحويل الثورة من ثورة على مظالم رجال الدين إلى ثورة على الدين نفسه وجعلوا لفظ الدين عند الشعوب الأوربية مرادف للظلم والرجعية والتخلف والاستبداد وتجدهم ينادون (لتسقط الرجعية) والمقصود الواضح هناك (ليسقط الدين) حتى أصبح النظام المثالي هناك هو النظام العلماني والنظام البائد هو نظام الكنيسة الديني.

السبب الرابع :نظرية التطور هذه النظرية وهي التي تسمى (الدارونية) ومقتضاها الإلحاد والزندقة وأن الكون مجرد نوع يتكون من ملايين الخلايا والطبيعة هي التي تهب أسباب البقاء لهذه الأنواع فيكون لها الخلود أو منع أسباب البقاء عنها فتنتهي ويعني هذا الإلحاد حيث أن الله لا شأن له في الوجود ٠

وهكذا نشأت العلمانية واستشرى أمرها في بلاد الكفر البعيدة كل البعد عن الشريعة الإسلامية وبهذه المبررات قامت هذه الفئة بحرب كل محسوس أو ملموس ينطبق عليه مسمى الدين وإن اختلف التشريع وكان

في قمة العدالة والإنصاف سواء كان هذا الدين مسيحي أو يهودي أو إسلامي يدعو للعلم أو يحاربه فالأمر عندهم سواء. [1]

أقسام وقواعد وأركان العلمانية: تنقسم العلمانية إلى قسمين:

١-الديمقراطية الليبرالية، وتسمى منهجها العلمانية المعتدلة أي أنها مجتمعات لا دينية لكنها غير معادية للدين.

٢- العلمانية المتطرفة أي المضادة للدين، ويعنون بها المجتمعات الشيوعية وما شاكلها ومن مباديء العلمانيين مايلي:

١- ينكر بعض العلمانيين وجود الله تعالى، ويهملون أمور الغيب، من بعث وثواب وعقاب وغير ذلك، وبعضهم يفصل بين وجود الله سبحانه، وبين تأثيره في الحياة ومما لاشك فيه أن الله تعالى فطر الناس على وجوده ووحدانيته قال تعالى: {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}وكل الأدلة الشرعية والبراهين العقلية وغيرها، تدل دلالة قاطعة على ذلك وهذه العقيدة القائمة على الإلحاد ينشأ عنها مجتمع لا يؤمن بالله الواحد الأحد، ولا يؤمن باليوم الآخر، وما فيه من الثواب والعقاب،ولا يؤمن بدين، ولا يعترف بخلق، وإنما ينشأ عنه مجتمع غايته متع الحياة وملذاتها، لذلك فإن قبول العلمانية في أي مجتمع معناه تبني الإلحاد والمروق من الإسلام وردة صريحة عن دين الله الذي ارتضاه لعباده حتى

---

١) عن العلمانية كارثة الأمة - الاتجاهات الفكرية المعاصرة وموقف الاسلام منها

obeikandl.com

ولو كانت العلمانية بمعناها المعتدل في مرحلتها الأولى.

٢ـ إقامة حاجز بين عالمي الروح والمادة، والقيم الروحية لديهم سلبية، وإقامة الحياة على أساس مادي والعلمانيون بهذا المبدأ يفرضون على الإنسان قوانين لا تلائم تكوينه الذاتي، القائم على التوازن الدقيق بين المادية والروحية، فإنها تتعرض دائما للتمرد والعصيان، الأمر الذي يدفعها دائماً إلى إعادة النظر في قوانينها ونظمها وتغيير مناهجها، وذلك من أجل تقبل الناس لها ومحاولة للتوازن والتوافق والمجتمعات العلمانية عامة تقوم على أساس الإشباع المادي للإنسان، مع إهمالها تماماً للناحية الروحية والنفسية؛ لأنها استبعدت الدين من مجالات الحياة، وأقامت حضارة غربية أفقدت الرؤية الواضحة للإنسان، وحولته إلى حيوان يأكل ويشرب، ولا هم له غير ذلك، وأغلب ما يقع اليوم من الجرائم والمآثم، إنما هو بسبب هذا الإشباع المادي، وثمرة الكفر بالله واليوم الآخر، وأثر من آثار التنكر للحق، والاستهانة بالأخلاق ومن ثَم كانت هذه النظرة المادية للحياة نظرة من شأنها أن تباعد بين الإنسان وفطرته الخيّرة، وتسلخه من الطيبة والسماحة، وتميت فيه المحبة والرحمة، وتجعل منه عدواً لنفسه وللبشرية، وتجعله شر ما يدب على الأرض؛ قال تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}أما الإنسان في ظل الإسلام المتمسك به عقيدةً وشريعة ومنهج حياة، فإنه

سوف يعيش مكرما معززاً، لأنه يعيش حياته وفقاً لشرع الله الذي يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}وقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

- فصل الدين عن السياسة، أو إقامة الحياة على غير الدين والعلمانية بفصلها الدين عن الدولة، أو إقامة الحياة على غير الدين، تفتح المجال للانتماءات الوضعية والطبقية والمذهبية والقومية وغيرها والهدف من فصل الدين عن السياسة وعن شؤون الحياة، هو هدم العقيدة الصحيحة، وإخراج الناس من نور التوحيد إلى ظلمات الشرك الإلحاد، وإحلال القوانين الوضعية محل الشريعة الإسلامية، وإبعاد الإسلام عن التطبيق العملي وهذه الفكرة بعيدة كل البعد عن عقيدة الإسلام وشريعته، فالله – تعالى - يخاطب رسوله محمداً ﷺ بقوله: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} وقال تعالى وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} إن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيه كل ما تحتاجه البشرية في كل زمان ومكان، من خيري الدنيا والآخرة وفصل الدين عن الدولة أساس العلمانية التي نادى بها الغرب، ولجأ إليها كرد فعل لاضطهاد

الكنيسة للعلم والعلماء، لا يبرر إبعاده للدين عن شؤون الحياة؛ لأنه لو اتجه إلى الإسلام دون تعصب أو غرور لوجد فيه ضالته وهدايته.

- العلمانية تقوم على تطبيق مبدأ النفعية (البراجماتية) مع كل شيء في الحياة والبراجماتية تقوم على إنكار وجود الله وألوهيته، وتنكر الدين والأخلاق، وتجعل المنفعة المادية العاجلة وحدها المسيطرة، وهى أساس أي عمل أو فكرة، وتجعل مصلحة الإنسان لنفسه فوق مصالح الآخرين حتى ولو أضرَّ بهم أما الإسلام فقد جاء بما يكفل الخير والصلاح لكل الناس، وجميع المصالح والمنافع في الإسلام يسودها التعاون والإيثار والمحبة، وابتغاء الأجر والمثوبة من الله تعالى قال تعالى: {لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}وقال تعالى: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}وقال تعالى: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ}وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّجَ الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة.

وتعتمد العلمانية على مبدأ ميكيافيلي في الحكم والسياسة والأخلاق وهو مبدأ يقوم على أن الغاية تبرر الوسيلة مهما كانت هذه الوسيلة منافية للدين

والأخلاق، ومهما كانت حسنة أو سيئة وهذا الاتجاه المنحرف إذا أُخذ على إطلاقه، فهو طريق كل المنحرفين الظالمين المفسدين في الأرض، والأخذ بهذا الاتجاه - المستهين بفضائل الأخلاق الإنسانية - لتحقيق غايات الأفراد أو الجماعات هو نذير دمار عام وشامل لكّل الشعوب التي تأخذ به والرذائل الخلقية التي تقتضيها المكيافيلية مقبولة عند دعاتها إذا كانوا يمارسونها هم ضد غيرهم، ومرفوضة إذا كان غيرهم يمارسها ضدهم، وهذا تناقض منطقي بدهي، لا يلتزم به من يحاكم الأمور بعقله، ولكن يكابر فيه من يحاكم الأمور بأهوائه، وشهواته، ومصالحه الخاصة.

ومن المعروف في الحياة أن لكل إنسان، ولكل مجموعة بشرية، مطالب نفسية، وحاجات جسدية، ولابد لتحقيق أي مطلب من مطالب النفس، وأية حاجة من حاجات الجسد من اتخاذ وسيلة إلى ذلك فهل يصح في عقل أي إنسان عاقل اتخاذ أية وسيلة في الدنيا، مهما كان شأنها عظيماً، لأية حاجة مهما كان شأنها حقيراً تافهاً؟ فإذا كانت الغايات مطلقاً تبرر أية وسيلة دون قيد أو شرط والعلمانية تقوم على ثلاثة أركان هي:

الركن الاول: قصر اهتمام الإنسان على الدنيا فقط، وتأخير منزلة الدين في الحياة، ليكون من ممارسات الإنسان الشخصيَّة، فلا يصح أن يتدخل في الحياة العامة، أما الدار الآخرة فلما كانت أمر وراء الطبيعة، فينبغي في العلمانية أن يكون مفصولا تماما عن التأثير في الحياة المادية، وقوانينها المحسوسة .

الركن الثاني: فصل العلم والأخلاق والفكر والثقافة عن الالتزام بتعاليم الدين، أيِّ دين كان.

الركن الثالث: إقامة دولة ذات مؤسسات سياسية على أساس غير ديني .

كيف نعرف العلماني؟ و ما هي معتقداته؟: العلماني يؤمن بوجود إله لكنه يعتقد بعدم وجود علاقة بين الدين وبين حياة الإنسان (فكر بوذي) كما يعتقد أن الحياة تقوم على أساس العلم التجريبي المطلق وهذا (فكر ماركسي) ويعتبر القيم الروحية التي تنادي بها الأديان والقيم الأخلاقية بأنواعها قيم سلبية يجب أن يتم تطويرها أو إلغائها وهذا (فكر ماركسي) ويطالب بالإباحية كالسفور، والاختلاط بين الجنسين في الأماكن العامة والخاصة (أي الخلوة) ويحبذ عدم الترابط الأسري (دعوة ماسونية).

ويطالب بعدم تدخل الدين في أمور السياسة ويجب تطبيق الشرائع والأنظمة الوضعية كالقانون الفرنسي في الحكم وأن الدين للعبادة فقط دون تدخل في شئون الخلق وتنظيمها كما أراد الله سبحانه وتعالى ويردد دائماً أن الإنسان هو الذي ينبغي أن يستشار في الأمور الدنيوية كلها وليس رجال الدين وكأن رجال الدين هم الذين اخترعوا التعاليم السماوية ويطالب بأن يكون العقل البشري صاحب القرار وليس الدين (مع تحفظنا على رجال الدين لان ليس عندنا رجال دين ولكن عندنا علماء) ويصرح باطلاً بأن الإسلام لا يتلائم مع الحضارة وأنه يدعو إلى التخلف لأنه لم يقدم للبشرية ما ينفع ويتناسى عن قصد الأمجاد الإسلامية من فتوحات

ومخترعات في مجال الهندسة والجبر والكيمياء والفيزياء والطب وعلم الجبر ويعتقد أن الأخلاق نسبية ليس لها وجود في حياة البشر إنما هي انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية وهي من صنع العقل الجماعي وأنها تتغير على الدوام وحسب الظروف (فكر ماركسي) ويعتقد أن التشريع الإسلامي والفقه وكافة تعاليم الأديان السماوية الأخرى ما هي إلا امتداد لشرائع قديمة أمثال القانون الروماني وأنها تعاليم عفى عليها الزمن وتناقض العلم وأن تعاليم الدين وشعائره لا يستفيد منها المجتمع (فكر ماركسي) ويصرح بهذه المقولة ويجعلها شعاراً له دون أن يكون له دراية أو علم أو اطلاع على التعاليم الفقهية الإسلامية أو على الإنجازات الحضارية الإسلامية وحين يتحدث عن المتدينين فإنه يمزج حديثه بالسخرية منهم ويطالب بأن يقتصر توظيف خريجي المعاهد والكليات الدينية على الوعظ أو الإمامة أو الأذان وخلافه من أمور الدين فقط ويعتبر أن مجرد ذكر اسم الله في البحث العلمي يعتبر إفساداً للروح العلمية ومبرراً لطرح النتائج العلمية واعتبارها غير ذات قيمة حتى ولو كانت صحيحة علمياً ويعتبر قمة الواقعية التعامل بين البشر دون قيم أخلاقية أو دينية لأنها في اعتقاده غير ضرورية لبناء الإنسان بل أنها تساهم في تأخيره وأن القيم الإنسانية ما هي إلا مثالية لا حاجة للمجتمع لها ويعترض اعتراضا شديداً على تطبيق حدود الله في الخارجين على شرعه كرجم الزاني أو قطع يد السارق أو قتل القاتل وغيرها من أحكام

الله ويعتبرها قسوة لا مبرر لها ويطالب ويحبذ مساواة المرأة بالرجل ويدعو إلى تحررها وسفورها واختلاطها بالرجال دون تحديد العمل الذي يلائمها ويحفظ كرمتها كأنثى ويحبذ أن لا يكون التعليم الديني في المدارس الحكومية إلزامياً بل إختيارياً ويتمنى تغيير القوانين الإسلامية بقوانين علمانية كالقانون المدني السويسري والقانون الجنائي المعمول به في إيطاليا والقانون التجاري الألماني والقانون الجنائي الفرنسي وهذا القانون يعمل به في بعض الدول العربية ويعتبر تلك القوانين هي الأفيد في حياة الفرد والمجتمع من التنظيم الإسلامي.

دور المفكرين والفلاسفة في ظهور العلمانية: هذا جان جاك روسو - سنة ١٧٧٨م - له كتاب العقد الاجتماعي الذي يعد إنجيل الثورة، مونتسكيو له روح القوانين وسبينوزا اليهودي يعتبر رائد العلمانية باعتبارها منهجاً للحياة والسلوك وله رسالة في اللاهوت والسياسة وفولتير - سنة ١٨٠٤م - صاحب (القانون الطبيعي) كان الدين عنده في كتاب كيف تعرفهم؟ لخليفه بن إسماعيل الإسماعيل حدود العقل وحده ووليم جودين - ١٧٩٣م – كان له العدالة السياسية ودعوته فيه دعوة علمانية صريحة نظرية التطور: ظهر كتاب (أصل الأنواع)- سنة ١٨٥٩م - لتشارلز داروين الذي يركز على قانون الانتقاء الطبيعي وبقاء الأنسب وقد جعل الجد الحقيقي للإنسان جرثومة صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين، والقرد مرحلة من مراحل التطور التي

كان الإنسان آخرها وهذه النظرية أدت إلى انهيار العقيدة الدينية ونشر الإلحاد وظهور نيتشة وفلسفته التي تزعم أن الإله قد مات وأن الإنسان الأعلى السوبر مان ينبغي أن يحل محله ودور كايم اليهودي الذي جمع بين حيوانية الإنسان وماديته بنظرية العقل الجماعي وفرويد اليهودي اعتمد الدافع الجنسي مفسراً لكل الظواهر، والإنسان في نظره حيوان جنسي وكارل ماركس اليهودي: صاحب التفسير المادي للتاريخ الذي يؤمن بالتطور الحتمي وهو داعية الشيوعية ومؤسسها الأول الذي اعتبر الدين أفيون الشعوب جان بول سارتر فيلسوف الوجودية، وكولن ولسون في اللامنتمي كانا داعيتان إلى الوجودية والإلحاد وقد أعلنت وجودية سارتر التصادم الكامل بين الحرية وبين الإيمان: إما أن أكون حراً، أو يكون الله موجوداً، وسارت جموع الغوغاء لهدم قلعة الباستيل الفرنسية، وشعارها الخبز ثم تحول شعارها إلى الحرية والمساواة والإخاء وهو شعار ماسوني، ولتسقط الرجعية وهي كلمة ملتوية تعني الدين وقد تغلغل اليهود بهذا الشعار لكسر الحواجز بينهم وبين أجهزة الدولة وإذابة الفوارق الدينية وتحولت الثورة من ثورة على مظالم رجال الدين إلى ثورة على الدين نفسه ويلاحظ أن مصطلح الرجعية راج كثيراً في بلاد المسلمين، ورفعه العلمانيون والليبراليون وكل تيارات التغريب الفكري في مواجهة الدين والتدين.

طبقات العلمانيين: والعلمانيون في العالم العربي والإسلامي كثيرون منهم كثير من الكتاب والأدباء والصحفيين، ومنهم كثير ممن يسمونهم بالمفكرين، وأساتذة في الجامعات، وجمهرة غفيرة منتشرة في وسائل الإعلام المختلفة تسيطر عليها، ومنهم غير ذلك وكل هذه الطبقات تتعاون فيما بينها، وتستغل أقصى ما لديها من إمكانات لنشر العلمانية بين الناس، حتى غدت العلمانية متفشية في جل جوانب حياة المسلمين.

أسباب ظهور العلمانية في الغرب أولاً

الطغيان الكنسي: وحين يصدر الطغيان عن رجال يراهم الناس قديسين ورسل سلام وطلاب آخرة، فذلك يشق على النفس احتماله إذا كان رجل دين يجعل المحبة شعاره والتسامح ميزته ويقول لأتباعه :من يلطمك على خدك الأيمن فأدر له الآخر أيضاً، فهذه المفارقة العجيبة تستدعي مزيداً من الفحص فقد كان رجال الدين سابقين لعصرهم في الناحية التنظيمية، مما أكسبهم نفوذاً لا يقبل المنافسة، لذلك نلاحظ كثيراً من الأباطرة المتمردين على الكنيسة يفشلون دائماً في مواجهتها ويرتدون صاغرين إلى الانضواء تحت ظلها والعالم الغربي المسيحي لم يستطع التخلص من قبضة الكنيسة إلا بعد الثورة الداخلية التي قادها المصلحون الكنسيون، التي أدت إلى إضعاف الهيكل التنظيمي والسلطة المركزية وتشتيت ولاء الأفراد والنفس البشرية لا تخلو من حب الطغيان إذا تهيأت لها أسبابه وليس كخشية الله تعالى واستشعار رقابته وضعف الإنسان

إزاء قدرته حاجز لها عنه ولما كانت الكنيسة مفلسة من ذلك فقد آل الأمر إلى أن تبدأ هيئاتها التنظيمية شركة دنيوية تطمح إلى النفوذ والمغانم ثم تمكنت من أن تصبح قوة استبدادية غاشمة ومركزها الديني هو الذي هيأ لها النجاح المطرد، والاضطهاد البالغ الذي تعرض له أتباع السيد المسيح عليه السلام من بعده، حول الدعوة النصرانية إلى دعوة سرية، فاختفي دعاتها، وأخفوا نسخ الأناجيل، ودونوها بلغاتهم الخاصة وتناقلوها سراً، إذ كانت تتعرض للحرق والمصادرة من قبل الروم وكان الداخل الجديد في دينهم يأخذ عنهم التعاليم مشافهة بعد ترجمتها إلى لغته الدارجة، ثم يبثها في قومه سراً، فإذا أشكل عليهم أمر رجعوا إلى الداعية الذي يملك نسخة لأحد الأناجيل فيبين لهم رأي الانجيل أو رأيه الخاص في ذلك الأمر ولم يكن الدعاة يسمحون للأتباع بتملك النسخ أو يطلعونهم عليها خشية على أنفسهم وعلى الكتب أيضاً، بالإضافة إلى كون عقلية الأتباع وظروف البيئة لم تكن تؤهلهم للأخذ المباشر أو الاستنباط والاجتهاد الذاتي، ويزداد الأمر صعوبة إذا كانوا يجهلون اللغة التي كتب بها الإنجيل كل ذلك أدى إلى حصر المصادر الدينية المسيحية في أيدي فئة قليلة من الناس واقتصار حق شرحها عليهم وحدهم، فلما انقضت عصور الاضطهاد الديني واعتنقت الدولة الرومانية الدين الكنسي احتفظ رجال الكنيسة بحق قراءة وشرح الكتب المقدسة وأيدتهم الدولة في ذلك لتجمع رعاياها على عقيدة واحدة بإتاحة الفرصة للكنيسة للقضاء على

الفرق المنشقة، وورث رجال الكنيسة عن أحبار اليهود صفاتهم الممقوتة من التعصب الأعمى واتباع الهوى واحتكار الرأي، فظلت مصادر الدين الكنسي حكرا عليهم لا تقع عليها يد لباحث أو ناقد من غير رجال الدين، وكان باستطاعة الكنيسة أن تفرض كل شئ باسم الإنجيل وهى آمنة من أن أحداً لن يقوم حيالها بأدنى معارضة وهكذا ظلت مصادر الدين النصراني قابعة في خبايا الكنائس وزوايا الأديرة تؤخذ تعاليمها مشافهة من أولئك الذين يزعمون القداسة والعصمة، ما دامت مصادر الديانة غير مكشوفة فكيف يعرف الناس مقدار صدق رجال الدين فيما يقولون عن الله وكيف يمكنهم مناقشة الكنيسة فيما تمليه من عقائد وتشريع؟ لم يكن أمامهم إلا التسليم المطلق والطاعة العمياء وقد اطمأنت الكنيسة إلى أن أحداً لن ينبس ببنت شفة بما يمس قداستها وصواب آرائها، فاشتطت وغلت في فرض سلطانها وتعميق هيبتها ووجدت الباب مفتوحاً إلى طغيان لا يلين ولا يرحم وهذه الأوضاع والعوامل مجتمعة وهي السلطة الكهنوتية المنظمة والمصادر غير المكشوفة والبيئة البدائية جعلت من الكنيسة ماردا جباراً وطاغوتاً جائراً يملك كل مقومات البقاء ولوازم الاستبداد ويريد أن يسيطر على كل شي وفق إرادته وهواه ولم تدع الكنيسة جانباً من جوانب الحياة دون أن تمسكه بيد من حديد وتغله بقيودها العاتية فهيمنت على المجتمع من كل نواحيه الدينية والسياسية والاقتصادية والعلمية وفرضت على عقول الناس وأموالهم وتصرفاتهم

وصاية لا نظير لها والتاريخ يفيض في الحديث عن طغيان الكنيسة ويقدم نماذج حية له في كل الشئون.

الطغيان الديني: منذ مجمع نيقية ٣٢٥م، والكنيسة تمارس طغيان ديني بشع، ففرضت عقيدة التثليث قهراً، وسفكت دماء من ظفرت به من الموحدين وعذبتهم ونصبت نفسها إلهاً يحل ويحرم، ينسخ ويضيف، وليس لأحد حق الاعتراض، أو إبداء الرأي، كائناً من كان وإلا فالحرمان مصيره واللعنة عقوبته لأنه كافر مهرطق وكان الختان واجباً فأصبح حراماً، والميتة محرمة فأصبحت مباحة، والتماثيل شركاً ووثنية فأصبحت تعبيراً عن التقوى، وكان زواج رجال الدين حلالاً فأصبح محظوراً، وكان أخذ الأموال من الأتباع منكراً فأصبحت الضرائب الكنسية فرضاً لازماً، وأمور كثيرة نقلتها المجامع من الحل إلى الحرمة أو العكس دون أن يكون لديها من الله سلطاناً أو ترى في ذلك حرجاً، وأضافت الكنيسة إلى لغز الثالوث عقائد وآراء أخرى تحكم البديهة باستحالتها ولا مناص من الإيمان بها وفق هوى الكنيسة كقضية الاستحالة في العشاء الرباني وعقيدة الخطيئة الموروثة وعقيدة الصلب والعذراء والطقوس السبعة، كل هذه فرضتها على الأتباع بحجة أنها أسرار عليا لا يجوز الخوض فيها أو الشك في صحتها، وكان العامل المساعد على إنجاحها يتمثل فيه الطغيان الديني فلا يستطيع أحد دخول الملكوت إلا بواسطته ولا يمكنه الاتصال بالله إلا من طريقه وهي حق ما دامت الكنيسة أقرته إذ هي

معصومة عن الخطأ فى زعمهم منزهة عن الزلل ولم تعد لهم رغبة في رؤية مملكة الرب موطدة في قلوب الناس فقد نسوا ذلك الأمر وأصبحوا يرغبون في رؤية قوة الكنيسة التي هي قوتهم متسلطة على البشر وفي سبيل توطيد تلك القوة على أتم استعداد للمساومة مع أي شئ حتى البغض والخوف والشهوات المستقرة في قلوب البشر، ونظراً لأن كثيراً منهم كانوا يرون الريبة في سلامة بنيان مبادئهم الضخم وصحته المطلقة لم يسمحوا بأية مناقشات فيه، كانوا لا يحتملون أسئلة ولا يتسامحون في مخالفة لا لأنهم على ثقة من عقيدتهم بل لأنهم كانوا غير واثقين فيها، وظهر في القرن الثالث عشر ما يساورها من قلق حول الشكوك الشديدة التي تنخر بناء مدعياتها بأكمله وقد تجعله أثراً بعد عين، فلم تكن تستشعر أي اطمئنان وكانت تتصيد الهراطقة في كل مكان كما تبحث العجائز الخائفات عن اللصوص تحت الأسرة وفي الدواليب قبل الرجوع إلى فراشهن.

وعززت الكنيسة سلطتها الدينية بادعاء حقوق لا يملكها إلا الله، كحق الغفران والحرمان، فحق الغفران أدى إلى المهزلة التاريخية، صكوك الغفران وحق الحرمان عقوبة معنوية بالغة كانت شبحاً مخيفاً والكنيسة لم تقتصر على هذا بل طبقت عملياً ما يثبت إصرارها على الطغيان وحاربت كل من خالف آرائها أو اعتنق ما يخالف عقيدتها ولا نعني بذلك المسلمين أو اليهود بل الطوائف النصرانية التي اختلفت مع الكنيسة في

قضية من قضايا العقيدة أو الشريعة ومن أوضح الشواهد على ذلك في العصور الوسطى ما تعرض له الكاثاريون والوالدونيون الذين لم يتخلوا عن الدين بل كانوا يطالبون بحياة مسيحية حقيقية تستمد مقوماتها من الكتاب المقدس نفسه وأنكروا على الكنيسة ثراءها ودنيويتها ومع ذلك فقد أعلنت الكنيسة الحرب عليهم، وحرض البابا أنوسنت كما يقول ويلز على حرب صليبية ويعلق المؤرخ الإنجليزي على ذلك بقوله :القصص التي تروى عن هذه الحروب الصليبية تحكي لنا أضرب القساوسة والنكال البشع ما يتضاءل إزاء بشاعته قصة استشهاد المسيحيين على أيدي الوثنيين وهي فوق هذا تسبب لنا رعبا مضاعفا لما هو عليه من صحة لا سبيل إلى الشك فيها، كان هذا التعصب الأسود القاسي روحاً خبيثاً يتعارض تماماً مع روح يسوع فما سمعنا أنه لطم الوجوه أو خلع المعاصم لتلاميذه المخالفين له، ولكن البابا وات كانوا طوال قرون سلطانهم في حنق مقيم ضد من تحدثه نفسه بأهون تأمل في كفاية الكنيسة الذهنية ولم يقف الأمر عند هذا الحد لاسيما بعد أن اتضح للكنيسة الأثر الإسلامي الظاهر في الآراء المخالفة لها فأنشأت ما أطلق عليه محاكم التفتيش وكانت الضحية الأولى لمحاكم التفتيش هى مسلمي الأندلس الذين أُبيدوا إبادة تامة بأقسى وأشنع ما يتخيله الإنسان من الهمجية والوحشية، وظلت تمارس أعمالها على مخالفي الكنيسة وإن لم يكونوا مسلمين أو متأثرين بالحضارة الإسلامية وانتقلت من أسبانيا إلى

بقية أقاليم الكنيسة، وكانت المحكمة الأم لها هي المحكمة المقدسة في روما، ولايكاد المؤرخون الغربيون يتعرضون للحديث عنها إلا ويصيبهم الاضطراب وتتفجر كلماتهم رعباً فما بالك بالضحايا الذين أزهقت أرواحهم والسجناء الذين أذاقتهم المر والنكال.

كان الإنسان في تلك العصور يكبس منزله وهو هادئ وادع فيحمل في جوف الليل ويعتقل الأشهر والسنين وهو لا يدري ماهي التهمة التي سيتهم بها، لأن خصما له أبلغ المحكمة أنه سمعه يقول كذا عن الرؤيا أو عن الثالوث أو عن المعجزات، فإذا أصر المتهم على إنكار ما نُسب إليه من التهمة جاز للمحكمة تعذيبه بتقطيعه أشلاء أمام عينيه وأن تقرض لحمه بالمقراض، وأخيراً تحرقه وكانت المحكمة عبارة عن سجون مظلمة تحت الأرض بها غرف خاصة للتعذيب وآلات لتكسير العظام وسحق الجسم البشري وكان الزبانية يبدءون بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيا حتى يهشم الجسم كله ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم وبسبب ما سبق، عاش الناس تلك الأحقاب ترتعد قلوبهم عند ذكر الكنيسة، ووقف كبار الفلاسفة والنقاد مبهوتين مطرقين، لا يجرؤ أحدهم على التصريح بأنه لا يؤمن بالمسيحية مهما كانت آراؤه مخالفة لتعاليمها، ولم يستطع العلماء آنذاك مثل نيوتن وبيكون وديكارت وكانت أن يعترضوا على عقائد الكنيسة الفجة، أو يجاهروا بمخالفتها، بل يخيل

إلى الباحث أنهم كانوا يعيشون فترة من فقدان الوعي تجاه هذه العقائد رغم نبوغهم في مجالات أخرى. يقول برنتن لم يكن بوسع الكثيرين من أفراد المجتمع الغربي أن يعترفوا صراحة وجماعة بالإلحاد أو بأية عقيدة أخرى غير المسيحية إلا خلال القرون القلائل الأخيرة، وقد كان الكفار الذين يجاهرون بكفرهم قلة نادرة في الألف سنة التي استغرقتها القرون الوسطى ولما كان الناس جميعاً مسيحيين فلم يكن هناك مفر من أن تكون المسيحية هي كل شئ لكل الناس، فلقد كان القديس فرانسيس وأرازمس ولويولا وميكيافيللي وباسكال ووزلي ونابليون وجلادستون وجون روكفلر جميعاً مسيحيين.

ثانياً: الطغيان السياسي: طبيعي أن يكون لرجال الدين سلطة سياسية في الأمة التي تدين بدينهم، والافتراض الذي لا يصح سواه هو أن تكون الأمور كلها والسياسة خاصة في يد فئة مؤمنة متدينة تطبق شريعة الله وتقيمها في واقع الحياة لكن الذي لا يصح على الإطلاق هو أن يتحول رجال الدين إلى طواغيت ومحترفي سياسة، مع نبذ شريعة الله وإسقاطها من الحساب ليحل محلها شهوة عارمة للتسلط ورغبة شرهة في الاستبداد ومفاد ذلك أنه لا حرج على الكنيسة في تقويم انحرافات الملوك وممارسة الضغوط عليهم إذا خرقوا التعاليم الدينية لتردهم إلى حظيرة الدين وتعبدهم لله وحده، فهذا عين مهمتها في الحياة ولا ينبغي لها أن تتخلى عنها، أما أن تسهم الكنيسة في طمس الدين وتعطيل الشريعة ثم

تفرض نفسها وصية على الملوك والأمراء وتجعل معيار صلاحهم هو مقدار ما يقدمونه لها من الطاعة وواجبات الخدمة، لا بمقدار ما يحفظون حدود الله فذلك هو الأمر الشائن والعيب الفاضح، ومع هذا فقد ظلت النفسية الأوروبية تعاني تمزقاً رهيباً بسبب الصراع المزمن الذي دار بين الكنيسة وبين الملوك والمنافسة الشديدة بينهما للقبض على مقاليد المجتمع وكسب ولاء الأفراد وكان ملوك أوروبا يضيقون ذرعاً بتدخل الكنيسة في كل شئونهم، ذلك التدخل الذي لا يجدون له مبرراً على الإطلاق، وفي نظرهم لم يكن لرجال الدين عليهم ميزة إلا القداسة ومع ذلك فهم أيضاً مقدسون، إن لم يكن بأنفسهم فبنسبهم يقول فيشر: كانت الأسر الحاكمة في أوروبا تستمد بقاءها كمن صلتها النسبية بأحدث القديسين فيرثون منه قداسته ولا يبالي الشعب بعد ذلك بتصرفاتهم لأنهم مقدسون وقد جرؤ إدوارد الأول ملك إنجلترا، وفيليب ملك فرنسا، على قول أنه ليس من الضروري أن يخضع الملك للبابا لكي يحظى بالجنة في الآخرة وإن كلا منهما قد نوى أن يكون سيداً في مملكته وأن شعبه يؤيده في هذه النية تمام التأييد فقد كان غاية ما يطمح إليه أولئك أن تكف الكنيسة عن فرض وصايتها السياسية والدينية عليهم دون أن يفكروا في تقويض بنيانها أو الخروج على تعاليمها لكنهم كانوا في واد والكنيسة في واد فقد كانت ترى أن خضوع الملوك لها ليس تطوعاً منهم بل واجباً يقتضيه مركزها الديني وسلطانها الروحي جاء في البيان الذي أعلنه

البابا نيقولا الأول قوله :أن عيسى أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وأن أساقفة روما ورثوا بطرس في تسلسل مستمر متصل لذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين، حكاماً كانوا أو محكومين أما البابا الطاغية جريجوري السابع، فقد أعلن أن الكنيسة، بوصفها نظاماً إلهياً، خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية، ومن حق البابا وواجبه، بصفته خليفة الله في أرضه، أن يخلع الملوك غير الصالحين وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم، حسب مقتضيات الأحوال وسخر من الملوك والشعوب بقوله: من ذا الذي يجهل أن الملوك والأمراء يرجعون بأصولهم إلى الذين لا يعرفون الله ثم يتعالون ويصطنعون العنف والغدر ويرتكبون جميع أنواع الجرائم ويطالبون بحقهم في حكم من لا يقلون عنهم جشعا وعماية وعجرفة لا تطاق، وظل النصر حليف الكنيسة طيلة القرون الوسطى بسبب سلطتها الروحية البالغة وهيكلها التنظيمي الدقيق واستبدادها المطلق لذلك فقد كان الباباوات هم الذين يتولون تتويج الملوك والأباطرة، كما كان في إمكانهم خلع الملوك وعزلهم بإرادتهم ولم يكن باستطاعة أحد الانفلات من ذلك، ومن رفض الرضوخ فحكمه غير شرعي ولا يعوزنا الاستشهاد على ذلك من التاريخ الأوروبي فالأمثلة فيه كثيرة كحادثة الإمبراطور الألماني هنري الرابع المشهورة مع البابا جريجوري السابع إذ نشب

خلافاً بينهما حول مسألة التعيينات أو ما يسمى بالتقليد العلماني فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا ورد البابا بخلع الإمبراطور وحرمه وأحل أتباعه والأمراء من ولائهم له وألبهم عليه فعقد الأمراء مجمعاً قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد، فلم يكن في وسعه أن ينتظر وصول البابا فسافر للمثول بين يدي البابا فى مرتفعات كانوسا في تسكانيا وظل واقفا في الثلج في فناء القلعة ثلاثة أيام حتى تمكن من الظفر بالمغفرة والحصول على رضا البابا وأعظم من تحدى سلطات الكنيسة واستطاع مقاومتها مدة غير يسيرة، هو الإمبراطور فريدريك الثاني وتعود صلابته إلى المؤثرات الإسلامية في ثقافته وشخصيته.

ثالثاً: الطغيان المالي: يستطيع المرء أن يقول دون أدنى مبالغة أن الأناجيل المسيحية لم تنه عن شئ نهيها عن اقتناء الثروة والمال، ولم تنفر من شئ تنفيرها من الحياة الدنيا وزخرفها، حتى أن المتأمل في الأناجيل رغم تحريفها لابد أن يؤخذ بروعة الأمثلة التي ضربها المسيح عليه السلام للحياة الدنيا ومتاعها الزائل وجاءت القرون التالية فشهدت مفارقة عجيبة بين مفهوم الكنيسة عن الدنيا وبين واقع الكنيسة العملي، فقد تشددت الكنيسة جدا حتى حرمت ما أحل الله من الطيبات واقتبست النظرة البوذية التشاؤمية للحياة الدنيا وكانت سيرتها الذاتية صفحة مخزية من التكالب على الدنيا وامتصاص دماء الأتباع بما لا يضارعها

فيه أثرياء اليهود وكبار الإقطاعيين الذين تسميهم الكنيسة دنيويين ويقول كرسون: كانت الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع والقناعة والصوم والورع والرحمة، كل ذلك خيرا للمؤمنين وللقسيسين وللقديسين وللخطب والمواعظ، أما أساقفة البلاد والشخصيات الكهنوتية الكبيرة فقد كان شئ آخر البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء والشهوة في مجالس الخاصة والعجلات والخدم والأرباح الجسيمة والموارد والمناصب.

مراحل ظهور العلمانية: مرّت العلمانية بثلاث مراحل أساسية هى:

- مرحلة التحديث واتسمت بسيطرة الفكر النفعي على جوانب الحياة بصورة عامة،وانعكس ذلك على توليد نظريات أخلاقيّة ومادية تدعو بشكل ما لتنميط الحياة، وتآكل المؤسسات الوسيطة مثل الأسرة.

- مرحلة الحداثة وهي مرحلة انتقالية قصيرة استمرت فيها سيادة الفكر النفعي مع تزايد وتعمق آثاره على كافة أصعدة الحياة، فواجهت الدولة القومية تحديات بظهور النزعات العرقية، وأصبحت حركة السوق الخالية من القيم تهدد سيادة الدولة القومية، واستبدل الاستعمار العسكري بأشكال أخرى من الاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي، واتجه السلوك العام نحو الاستهلاك الشره.

-مرحلة ما بعد الحداثة حيث أصبح الاستهلاك هو الهدف النهائي من الوجود ومحركه الحرية واللهو والتملك، واتسعت معدلات العولمة

لتتضخم مؤسسات الشركات متعددة الجنسيات والمنظمات غير الحكومية الدولية وتتحول القضايا العالمية من الاستعمار والتحرّر إلى قضايا البيئة والمساواة بين المرأة والرجل وحماية حقوق الإنسان ورعاية الحيوان وثورة المعلومات وضعفت في المجتمعات الصناعية المتقدمة مؤسسات اجتماعية صغيرة كالأسرة، بسبب الإسهاب في المساواة بين الرجل والمرأة، وظهرت أشكالاً أخرى للمعيشة العائلية مثل زواج الرجال أو زواج النساء، وزاد عدد النساء اللاتي يطلبن الطلاق، كل ذلك مستنداً على غياب ثوابت ومعايير أخلاق المجتمع والتطور التكنولوجي الذي يتيح بدائل لم تكن موجودة من قبل.

نتائج العلمانية في الغرب: حين تحرر الإنسان الغربي من سيطرة الكنيسة والإقطاع تحرر من سيطرة الخرافة والدجل والظلم، ورافق ذلك بزوغ فجر التقدم الصناعي والثورة العلمية، حين أخذت الشعوب الغربية بالنهج العلماني الجديد في إطار المستجدات العلمية والفكرية والسياسية الجديدة كانت نتائج ذلك:

أ -التقدم العلمي الهائل: فالعقل الغربي كان أسير الأساطير تاريخياً، الخرافة دينياً وعلمياً،فتحرر وانطلق فأبدع بما لم تعرف البشرية في تاريخها،وقدم الغرب للإنسانية من نتائج علمه ثورة صناعية هائلة غيرت وجه الأرض وطبيعة علاقة الإنسان بالبيئة المادية من حوله.

ب- الرخاء الاقتصادي الواسع الذي أصبحت تعيشه الشعوب الغربية ولم

تحرمه شعوب العالم الأخرى فمنجزات العلم وظفت لرفاهية الإنسان في ضروریاته من غذاء وكساء وعلاج وسكن وخدمات، بل تجاوز كثير من الشعوب توفير الضروريات إلى التوسع في الكماليات بصورة مميزة لم تعرف لها البشرية مثيلاً بصورة عامة.

ج- الاستقرار السياسي: واستبعاد صور وأشكال العنف في التعبير عن الآراء والتوجهات السياسية،وترسيخ آليات وأخلاقيات وقوانين وأعراف للحوار أو الصراع السياسي،وتوفير ضمانات للحريات السياسية في آلياته ووسائله وأساليبه- لا في فلسفته ومحتواه الفكري- أمن وسلام على الشعوب الغربية بعد عصور الدماء والتطاحن والثورات، وأصبح مثالاً يحتذى من كافة شعوب الأرض، ويسعى الجميع لتطبيقه باعتباره نهاية التاريخ، وغاية التطور، وسقف الحضارة الذي لا يمكن تجاوزه.

د- احترام حقوق الإنسان وحرياته: وبالذات الإنسان الغربي، وبالمفهوم الغربي أيضا للحقوق والحريات، حيث أصبح زعيم أكبر وأقوى دولة في العالم يحقق معه ويحاكم كأي فرد مهما ضعف وتضاءل من شعبه، وبحيث أصبحت السيادة للقانون،ودور السلطة هو حماية القانون وتنفيذه وخدمة الأمة وحمايتها والنزول على رأيها ورغبتها، مع الأخذ في الاعتبار أن المفاهيم الغربية عن حقوق الإنسان والحريات ليست هي المفاهيم الصحيحة،ولا الأولى والأجدى لحياة الإنسان، بسبب منطلقاتها المادية الإلحادية الإباحية، لكنها بلا شك تحتوي على قدر لا بأس به من

قيم العدل والمساواة والإنصاف بمعايير القوانين الوضعية.

ه - انتشار الإلحاد بجميع صوره وأشكاله في حياة الغربيين: نتيجة لهزيمة الكنيسة والدين في مواجهة العلمانية، مما أدى لتحييد الدين عن شئون الحياة العامة، واقتصاره على الجانب الفردي الاختياري في حياة الإنسان ولأول مرة في تاريخ البشرية تقوم دول وأنظمة ومعسكرات عالمية تتبنى الإلحاد في أشد صوره غلوًا وتطرفاً ومادية، وتصادم فطرة الإنسان ، وتصادر ضرورات العقل في الإيمان ومستلزماته تحت شعار تقديس العقل،وإنما هو تسفيه العقل والعياذ بالله والسيطرة الغربية على شعوب العالم الأخرى، واستعمارها،واستعبادها،واستغلال خيراتها، والتنافس بين الدول الغربية في ذلك :مما تسبب في قيام حربين عالميتين ذهب ضحيتهما عشرات الملايين من البشر، وما زال التهديد قائماً بحرب ثالثة قد تكون سبباً في دمار الأرض والقضاء على الحضارة البشرية ومنجزاتها عبر التاريخ، فالغرب نتيجة للثورة العلمية والقوة الاقتصادية والكشوف الجغرافية وتراجع المد الإسلامي في الأندلس وغيرها،أخذت أساطيله تمخر عباب البحار والمحيطات،وتتسابق للاستيلاء على الممالك والأقاليم،وتقاسمت العالم،ونهبت ثرواته، واستغلت شعوبه، وصادرت عقائده، وتجاهلت خصائص كل أمة وقيمها وثقافتها، وقامت حروب التحرر المقاومة للاحتلال، وسالت دماء الشعوب أنهاراً، وتم في النهاية جلاء القوى العسكرية من أغلب بقاع العالم،لكن بعد أن فرض الغرب

رؤيته وأفكاره، وربى على ذلك النخب الفكرية والسياسية في شعوب ما سمي بالعالم الثالث، وسلّمها زمام الأمر من بعده، فواصلت حمل راية العلمانية، وتطرفت في تطبيقها بالحديد والنار.

ز - العجز عن حل المعضلة الإنسانية التاريخية في غرس اليقين والطمأنينة في نفس الإنسان، والإجابة على تساؤلاته الكبرى المصيرية الملازمة له عبر تاريخه عن حقيقة وجود وبيان ماهيته ورسالته ودوره ووظيفته وإلى أين مآله ومصيره ونهايته.هذا الأمر الذي كان محور اهتمام المذاهب والفلسفات والمبادئ والنظريات، وموضوع الملل والنحل والرسالات السماوية وما بشرت العلمانية في بداياتها بأنها بالعلم ستصل إلى الإجابات الشافية الكافية وأنه لا مشكلة للإنسان بعد اليوم وها نحن بعد أن عاشت الحضارة الغربية قرابة ثلاثة قرون في ظل العلمانية نرى الإنسان الغربي يعيش مأزقاً نفسياً روحياً فكرياً وجودياً أشد عمقاً وتأزماً من مأزقه حين بشرت العلمانية بحل معضلته، على الرغم من التقدم المادي ورفاهيه العيش هذه الأيام وصدق سبحانه (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)[1].

١) العلمانية.. التاريخ والفكرة - د. عوض بن محمد القرني